المحور الاجتماعي في شعر الأطفال عند أحمد شوقي ومحمد إقبال

The Social Axis in Children's Poetry of Ahmad Shawqi and Muhammad Iqbal

Khwaja Faizullah
Lecturer of Islamic Studies Government College Gul Abad Dir, KPK
Email: Khawajafaizullah@gmail.com
Muhammad Aamir
PhD. Research Scholar Department of Arabic University of Peshawar
Email: Mohammadamir0341@gmail.com

Abstract
Poetry is an art and a unique way of expressing views in an amusing way that interpret the general feelings and emotions of the society. In this regard, children's poetry is comparatively more sensitive in nature particularly as far as its educational aspect is concerned. Watered by meaningful poetry filled with the message of goodness, the growing flowers will give much more fragrance to the beneficiaries. No doubt, flowers are the children, beneficiaries are the people wile fragrance makes its appearance in the form of noble manners, whole heartedness, high character, obedience and a sense of responsibility. This nursery will thrive and assume the shape of a good product in the form of a strong nation. Keeping in view the understanding level and interest of the children, meaningful poetry can serve bitterly the nation through satisfying the needs of future generation. The present article discusses the social axis in children's poetry of Ahmad Shawqi and Muhammad Iqbal. The both poets have determined social values for children through their poetic expression.

الكلمات المفتاحية: أحمد شوقي، العلامة محمد إقبال، شعر الأطفال، أدب الأطفال.

المقدمة:

هناك أهمية بالغة للموضوع في شعر الأطفال، إذ تلعب المضامين دورا خطيرا في بناء أفكار الأجيال الجديدة التي ستحمل وزر تشكيل المجتمع في المستقبل، لأن ما يحرز الطفل في حياته المبكرة من عادات وتقاليد ومعلومات وقيم، لم تزل منقوشة على شخصيته طول حياته، ولا تقبل التعديل أو التغير والتبدل إلا بالصعوبة.

وقد كان الشاعران الجليلان أحمد شوقي ومحمد إقبال على إدراك بعيد بهذه الحقيقة، فكان لهما اعتناء خاص بهذا العنصر الأدبي، و ذلك في إطار رؤيتهما الكلية المقتبسة من انتسابهما إلى الفكر الاجتماعي باعتبار تفوقهما على الأقران من الشعراء في الشعر الاجتماعي بحيث لم يظهر التيار الاجتماعي بهذه

الوفرة والغزارة عند غيرهما من الشعراء المعاصرين، وباعتبار تصورهما اعتقاديا شاملا، ومنهجا حياتيا متكاملا، وباعتبار إيمانهما الراسخ بأن إصلاح هذه الأمة المرحومة لا يمكن إلا بالقيم الاجتماعية الإسلامية كما صلح به حال أوائلها، وهذه الملامح يجدها المطالع منثورة في أعمالهما الشعرية والنثرية كافة.

لقد انتبه الشاعران لهذا الهم الفخم، أن ينشأ الأطفال نشأة صالحة قادرة على مواجهة تحديات الزمن الجديدة، ومقاومة أخطار الحضارات الزائغة، لكي يحافظ الأطفال على دينهم وعقيدتهم وثقافتهم ويحققوا الرفعة والكرامة، وينشر لواء الخير والسلام، وهذا الأمر ليس سهلا، لأن هذه المهمة تقتضي تربية الأطفال تربية صالحة، ويتطلب لهم إعدادا كافيا، ويستدعي الرؤية الواضحة والعزيمة الصادقة. من هذا المنطلق كان إصرار الشاعرين في شعرهما للأطفال على تلك المحاور والموضوعات الاجتماعية التي تلعب دورا فاعلا في بناء الجيل الجديد الذي يعول عليه في تحقيق الآمال والطموحات. ولذا نجد تشابها كبيرا في قصائد الأطفال لكل من أحمد شوقي ومحمد إقبال، وخاصة نجد توافقا مذهلا في قصائدهما الاجتماعية للأطفال مقتبسة من القرآن والسنة والتاريخ الإسلامي. وفي هذا البحث المتواضع أحاول أن أناقش هذا المحور – الذي ما سبق إليه أي باحث من قبلي – في شعرهما للأطفال.

المحور الاجتماعي في شعر أحمد شوقي:

لم يترك شوقي هدفا من أهداف الشعر إلا وقد نال منه، فعندما نطالع شعره من المحور الاجتماعي نصادف أقوالا حكمية ونصائح أخلاقية، ونرى ينشد فلسفته وحكمته مشوبة بالوعظ والإرشاد، فللمجتمع الإسلامي حظ كبير في ديوانه يتجه بالناس إلى الرزانة والرصانة في النهج القويم.

أشار شوقي في أبيات كثيرة إلى الأخلاق الفاضلة التي يبني بها المجتمع الصالح، وكذلك إلى الإباء، والبطولة والتضحية ونحوها. فإذا أخذنا الصبر على سبيل المثال، ودوره في تمديد الجراءة والشجاعة لتحمل الشدائد والبلايا نجد قوله:

وَلَنْ تَرَى صُحْبَةً تُرضى عواقبُها كالحقِّ والصبرِ في أمرٍ إذا اصطحبا ([1])

وكمثل قوله:

للتُرْك ساعاتُ صبرٍ يومَ نَكْبتِهم كُتِبْنَ في صحف الأخلاق بالذهب ([2])

وكمثل قوله:

صبرا لباة الشرق كل مصيبة تبلى على الصبر الجميل وتخلق ([3])

والأمثلة على بقية الرموز الاجتماعية كثيرة لا تحصى، كمثل قصيدته بعنوان " أيها العمال " الذي ينشد فيها نصائحه الثمينة حيث يدعو العمال إلى إتقان العمل، فيقول:

أَيُّها العمالُ أَفنوا ال عمر كدًّا واكتسابا
واعمروا الأرض، فلولا سعيُكم أمست يَبابا
أَتقِنوا الصنعة، حتى أخذوا الخلد اغتصابا ([4])

وينادي إلى طلب العلم الذي يعظم الأقوام ويبجّل الأمم، ويرفع ركن الحضارة التي بها عزّ الدولة المتقدمة فيقول في قصيدته بعنوان " تكريم ":

أَنتم غدًا أهلُ الأُمور، وإنما كنّا عليكم في الأُمور وُفودا
فابنوا على أُسُس الزمان وروحِه رُكنَ الحضارة باذخًا وشديدًا ([5])

ويعزز قوله بوجوب الانتقال من علم الجهل الهاوي بصاحبه في هوة الترديد الببغائي إلى وعي المعرفة المتبصرة بأمور الدين والدنيا فيقول في قصيدته بعنوان " الأزهر ":

الغافل الأمي ينطق عندكم كالببغاء، مرددا، ومكررا
يُمسِي ويصبحُ في أَوامِر دينِه وأُمور دنياه بكم مُستبصِرا ([6])

ويهتف بحاكم مصر وشعبه إلى جعل الجهد والاجتهاد أصلا وأساسا لكل عمل يبعد الخوب وتثبيط العزم، وينهض بالوطن على دعائم الشجاعة والبطولة الحقة، وذلك من خلال قوله في قصيدته بعنوان " صدى الحرب " حيث قال:

وما السيفُ إلا آيةُ الملك في الورى ولا الأمرُ إلا للذي يتغلَّب ([7])

وقد جعل شوقي الأخلاق الفاضلة ميزة فريدة للإسلام، وخير الهدي للأمة الإسلامية، ولذا يمدح خلق النبي الكريمﷺ في قوله:

يا مَنْ له الأخلاقُ ما تهوَى العلا منها وما يَتعَشَّقُ الكبراءُ ([8])

وإلى جانب الأخلاق، ذكر البر والإحسان، وأثنى خلال شعره على المشاريع الإنمائية التي تقوي اقتصاد الوطن، كما يقول في قصيدة " الهلال والصليب الأحمران ":

المحسنون همُ اللبا بُ وسائرُ الناسِ النفاية ([9])

وحين قام قاسم أمين (1863-1908م) في مصر بحركة تحرير المرأة، لم يشارك شوقي في تلك الدعوة مخافة على المرأة المصرية المسلمة التي إن رفعت الحجاب، قد تقع الفادحة. وقد ورد هذا في قصيدته بعنوان " بين الحجاب والسفور " حيث شبه فيها المرأة بالبلبل:

إن طرتَ عن كتفي وَقَعْ تَ على النُّسور الجُهَّل ([10])

ولكنه في قصيدة أخرى دافع عن السفور الذي لا يرى من خلاله سوى جلال المرأة الباعث على الاحترام في قوله:

وَرَدْنَكَ كوثرًا وسَفَرْنَ حُورًا وهل بالحور إن أَسْفَرنَ بأْس؟
فقل للجانحين إلى حجاب أَتُحْجَبُ عن صنيع الله نَفْسُ؟ ([11])

ولعله رأي الجهل الذي يسيء إلى المرأة، هو نفس المحيط بالشيء الموجه توجيها خاطئا كما في قصيدة " انتحار الطلبة " أو في قصيدة " رسالة الناشئة " وكلها قصائد ملأي بالنصائح والمواعظ المأخوذة من " الاجتماعيات " الغائصة في ثنايا الفكر والنفس البشرية. وشوقي وإن أعطانا في شعر " الاجتماع والأخلاق والحكم " كل ما يحلم به إنسان عاقل، أو يمر بخاطر أي إنسان، فهو لم يغص في أعماق النفس، ولم يأت بجديد، بل سار على خطى من سبقه. ([12])

المحور الاجتماعي في شعر محمد إقبال:

أثناء الاطلاع على الأعمال الشعرية وغيرها من كتابات إقبال، الشيء الوحيد الذي لا يمكننا أن نبقى دون أن نلاحظه هو أنه كان لديه وعي عميق بمشاكل عصره الاجتماعية التي واجهها المسلمون بشكل عام وفي شبه القارة الهندية بشكل خاص. على الرغم من كتابة كثيرة على جميع الجوانب الأخرى لفكر إقبال، إلا أنه – على حد علمي – لم يتطرق أي باحث حتى الآن إلى جانب اتجاهه الاجتماعي. وقبل الخوض في هذا الاتجاه يجب علينا أن نتوقف قليلا ونلقي نظرة سريعة على الظروف والبيئة التي ولد فيها إقبال، لأنه لا يمكن لأي بحث حول إقبال ومحوره الاجتماعي في شعره أن يكون مثمرا ما لم يناقش الوضع السياسي والاجتماعي الذي كان سائدا منذ ولادته وأثناء حياته.

فتح إقبال عينيه بعد حوالي عشرين عاما من حرب الاستقلال عام 1857م، حيث فشلت هذه الثورة ولا تزال صدمته حاضرة في ذاكرة مسلمي شبه القارة الهندية، لقد فقدوا سيادتهم وقوتهم، وخضعتهم قوة أجنبة بكل عنف، واهتز المجتمع الإسلامي قاطبة بسبب هذا الاضطراب. أمر الحكومة البريطانية بقتل خمس مئة ألف من سكان الهند، معظمهم من المسلمين، شنق المسلمون في الشوارع وألقيت جثثهم في الأنهار وحرقوا بعضهم أحياء. وفي مدينة دلهي تم شنق عشرين من الأمراء المغوليين في يوم واحد، ونهب الجيش البريطاني منازل المسلمين ومتاجرهم، ودمر المباني والأسواق الرائعة. وفي الواقع أدى فشل حرب الاستقلال وانهيار حركة المقاومة إلى إبادة جنس المسلمين وإحباطهم، وتعاون الهندوس مع الحكام المنتصرين في كل هذه الإجراءات التعسفية، وكان المجتمع الإسلامي يمر بأشد فترته الاضطراب واليأس.

ولا نتصور أن يكون مثل هذه الشخصية العبقرية غافلة عن المشاكل الاجتماعية التي أصابت المجتمع الإسلامي آنذاك، ولا شك فيه أن فكر شاعر الشرق ومشاعره تم تشكيلها في هذه الظروف القاسية، فلو كان المجتمع ذلك العصر خاليا من تفاقم هذه الصعوبات، لكان نبرة شعره وفلسفته مختلفة عن فكره ومنهجه الذي نجده الآن في دواوينه أو مصنفاته.

لم يكن إقبال شاعرا وفيلسوفا فحسب، بل له مشاركة عملية في النشاط الاجتماعي، وعلى الرغم من كونه شاعرا، أصبح عضوا ومسؤولا عن حزب سياسي خاض الانتخاب، وهو الذي أقنع القائد الأعظم ومؤسس باكستان محمد علي جناح بالعودة إلى الهند لقيادة المسلمين في الحركة الحرية، وفي عام 1930م طرح – في خطبة الشهيرة في مدينة آله آباد – حلا سياسيا للمشاكل الاجتماعية، وقام بمطالبة وطن منفصل لمسلمي الهند بكل قوة من القوات المحتلة.

القضايا الاجتماعية في شعر إقبال:

تناول العلامة محمد إقبال العديد من القضايا الاجتماعية في دواوينه، منها:

1- البعد عن كتاب الله:

كان إقبال يعتقد أن مجتمع المسلم المثالي لا يتصور إلا بتمسك المسلمين بكتاب الله تعالى، كما يقول ([13]):

الكتاب الحي والذكر الحكيم حكمة في الدهر تبقى لا تريم

إن فيه سر تكوين الحياة يستمد النكس أيدا من قواه ([14])

2- التحزب والطائفية:

كان التحزب والطائفية من أهم القضايا الاجتماعية التي جذبت انتباه إقبال من البداية، وهذا هو العامل الرئيسي في سقوط الخلافة والدول الإسلامية وتفكك المجتمع الإسلامي في كل مكان، وكان إقبال على علم بالمخاطر الكامنة في الطائفية، لذا حذر المسلمين في كثير من أشعاره، كما يقول في قصيدته الشهيرة " جواب الشكوى "([15]):

إنما الدين القويم للجميع ورسول الله للكل الشفيع

واحد لكنه ذاك الحرم مثل هذا ليته للناس تم

اختلاف في اعتقاد ونسب مثل هذا لبقاء ما وجب ([16])

3- التقليد الأعمى للحضارة الغربية:

كان إقبال يريد أن ينقذ مسلمي الهند والمسلمين الذين يعيشون في البلاد الشرقية الأخرى من هجمة الحضارة الغربية، وهو يقنع المسلمين أن حضارة الغرب في حالة انحطاط وهبوط، فلا ينبغي لنا أن نرحبها في الشرق ونقلدها ونخضع لها، فهو يقول([17]):

إلى الحق لم ينظروا في سفور لقد قلدوا سيرهم للضرير

حياة لعرب وعجم بها؟! حضارة غرب على قبرها!([18])

وفي القصيدتين " الحضارة الغربية "([19]) و" الرجل الأفرنجي "([20]) يصف إقبال الثقافة الغربية بأنها تفسد العقل والفكر، على سبيل المثال يقول:

فساد حضارتهم للنظر هو الشر في روحها قد حفر([21])

وأكد على المسلمين أن يحافظوا على تراثهم الثقافي الخاص، وألا يعانون من أي شعور بالخجل والخزي في صدد ذالك، كما يقول([22]):

زمان ومنك إليه النظر فمنك سماء بنور السحر

وفيك شرار لنور ذكاء جلالك يبدو ببدر ضياء

وبحر تموج من جوهرك وذاتك تخجل في حضرتك

لأفكار غيرك منك افتقار بذاتك هل تستطيع القرار؟!([23])

4- العقلية العبودية:

وصف إقبال العبودية والعقلية العبودية بأنه سبب جزري وعامل رئيسي للعديد من المشاكل الاجتماعية، وأشار في كثير من قصائده إلى هذا الداء الاجتماعي، كما يصف حياة العبد والحر في هذا البيت([24]):

ولعبد هي نهر من وشل ولحر إنها بحر هم ([25])

وفي قصيدته بعنوان " صلاة العبيد "([26]) يتأكد أن الدين الذي تمارسه الملة المستعبدة يخلو من الإيمان الحقيقي، يقول:

قال بعد الصلاة حلف جهاد كم يطيل الصلاة فيكم إمام

ما درى ذاكم المجاهد المؤمن الغر صلاة العبيد كيف تقام

كم لدى الحر في الحياة كفاح غيرة الحر للشعوب قوام

حرم العبد حرقة الكد عجزا فعلى وقته المضيء حرام

لا تعجب إذا أطال سجودا ما لديه سوى السجود مرام

رب وفق أئمة الهند يوما لسجود تحيا به الأقوام ([27])

5- نظام التعليم الغربي:

ومن أهم القضايا الاجتماعية التي لاحظ إقبال في باكورة حياته الشعرية هو نظام التعليم الغربي الذي فرضه الحكام البريطانيون في الهند، فكان المتخرجون من أبناء المسلمين في الكليات والجامعات، قد لا يصبحون مسيحيين، لكنهم لا يبقون مسلمين أيضا. وكان إقبال يعلم أن الشاب المسلم لا يأمن من الآثار السيئة لهذا النظام التعليمي إلا بالعقيدة القوية الدينية والتمسك بالثقافة الإسلامية، ففي قصيدته بعنوان " من جاويد "([28]) يخاطب ابنه فيقول:

إن تك " لا إله " في ضمير فالغرب من تعليمه أمان ([29])

كان شعر إقبال وفلسفته نورا مضيئا في ليلة اليأس المظلمة التي اجتاحت المسلمين في العالم كله، فهو لم يكتف بالندب والبكاء على القضايا الاجتماعية التي أحاطت بالمجتمع الإسلامي من الجهات الأربعة، فمن خلال شعره وفلسفته أنار للمسلمين الطريق الذي يجب أن يسيروا عليه إذا أرادوا تحقيق أهدافهم، وأوضح بجلاء أنه يجب على المسلمين أن يتملكوا بعض الصفات الفردية والاجتماعية للعب دور القيادة بين أقوام العالم.

المحور الاجتماعي عند الشاعرين في شعر الأطفال:

قد أشار أحمد شوقي في شعره للأطفال إلى العديد من القيم الاجتماعية التي تهم الأطفال في حياتهم المستقبلة، فكل شخصية في قصصه الشعرية تشير إلى الخصائص والمشاكل التي تطابق أحوال المجتمع، فمثلا شخصية النملة ترمز إلى قيمة السعي والاجتهاد، ويريد تحبيب هذه الصفة في ذهن الطفل، ويصور الأسد كشخصية الشجاعة والرجولة التي تحقق طموحاتها، وله أمر ونهي، ويريد الشاعر رؤية هذا الشعور بالاستعلاء والتفوق عند الأطفال أيضا، والحمامة في شعره للأطفال رمز الأمان والسلامة حيث يعلم الأطفال أهمية الأمن والسلام للمجتمع، ونجد الغزال في شعره استعارة للحسن والجمال، والببغاء رمزا لعذوبة الكلام وحسن الصوت. ومع ذلك قدم أحمد شوقي دورا سلبيا لبعض الحيوانات في مجتمع البشري، فيصّور الثعلب كشخصية خادعة وماكرة التي تحتال بأشكال مختلقة لتحقيق أهدافها المذمومة، ويهدف الشاعر خلال هذه الشخصية تحذير الأطفال عن مثل هؤلاء الخادعين والماكرين في المجتمع، واتخذ الحمار رمزا للحماقة والجهل، والغراب للتشاؤم والنحوسة.

وهكذا نجد العلامة إقبال في منظوماته وقصائده يعلم الأطفال القيم الأخلاقية وكيفية العيش في المجتمع، ويقدم خلالها العديد من النصائح والدروس التي تفيد الأطفال في حياتهم العائلية والاجتماعية. وفي هذا المجال يمكن لنا أن نشير على سبيل التمثيل إلى اهتمام الشاعرين بتأكيد القيم الاجتماعية الآتية:

1- عدم السخرية والكبر والغرور على الآخرين:

يحاول كلا الشاعرين أن يشرحا للأطفال أن الله لم يخلق شيئا عاطلا أو عديم النفع في العالم، ولكل شيء قيمته ومنفعته في ذاته، لذا لا ينبغي الاستهانة والسخرية بالآخرين، وجاء هذا المضمون التربوي الاجتماعي عند شوقي في حكاية بعنوان: " دودة القز ودودة الوضاءة "، حيث يقول في أولها:

لِدُودةِ القَزِّ عندي ودودةِ الأضواءِ
حكايةٌ تشتَهيها مسامعُ الأذكياءُ
لما رأت تِلكَ هذى تُنيرُ في الظلماءِ

سَعَتْ إليها، وقالت: تعيشُ ذاتُ الضِّياء! ([30])

وخلاصة الحكاية المتقدمة أن دودة القز تلتمس صداقة الدودة الوضاء، فترفض الثانية طلب الأولى لاستصغارها وحقارتها، وتستعلي نفسها وتغترّ بها، حيث تعتقد الدودة الوضاء أن شأنها أعلى وأرفع منها، ولا تليق هي كصديقة لها، فلما سخرت الدودة الوضاء منها استدلت دودة القز بأهميتها في صناعة الحرير والثياب الأنيقة الثمينة التي يلبسها الناس ويشكرون الله تعالى على هذه النعمة الجليلة. وجاءت أيضا منظومة شوقي بعنوان " النعجتان " في نفس المضمون والمحتوى، إذ تفتخر وتتباهى النعجة الأولى بحسن مظهرها الخارجي على النعجة الأخرى التي هي ضعيفة ونحيلة.

وجاء نفس المضمون والمغزى التربوي عند إقبال في منظومته بعنوان: " الجبل والسنجاب "([31])، وخلاصته أن الجبل يوما قال للسنجاب: أنا جبل شامخ عظيم تنحني الأرض أمام عظمتي، فما هي مكانتك وقدرك أمام شموخي وكبريائي! أنت من الأشياء الحقيرة والتافه، ليس بيني وبينك أي مناسبة! فأين الجبل وأين الحيوان الضعيف؟! فأجاب السنجاب وقال: تأدب في الحديث ولا تبح بهذا الهراء يا جبل! ليس المهم ضخامة الجسم ونحافته، بل هذا من قدرة الله تعالى وحكمته أن يكون هناك كبير وصغير، فإن منحك الله ضخامة فعلّمني تسلق الأشجار، أنت ضخيم لكن لا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة، وليس لديك ميزة سوى هذه الضخامة، يقول إقبال فيها:

قال يوما عند سنجاب جبل — مت غريقا أن شعرت بالخجل
تافه أنت لماذا الكبرياء؟! — في شعور وبعقل وذكاء
الصغير إنه أضحى الكبير — يكبر الأحمق لكن بالشعور
أي شيء أنت قل يا ليت شعري — هذه الأرض انفاض تحت قدري
لست مثلي احذرن من زلل — أين سنجاب صغير من جبل
سمع السنجاب هذا ثم قال — يا لعمري إن ذا عين المحال!!
في يقيني أنني لست الكبير — لست مثلي أنت يا هذا الصغير
ذا كبير وكذا هذا صغير — ذاك ما قد شاءه رب قدير
وبأمر الله هذاك الكبر — وبأمر الله كنت في الشجر
ما استطعت الآن رفعا للقدم — ذاك كبر مشبه فيك اللمم
يا كبير فيك طالت خيبتك — ما على الفوفل تقوى قدرتك
ما حقير قط في الكون الفسيح — قدرة الله تحافت عن قبيح ([32])

وجاءت منظومة أحمد شوقي بعنوان " النملة والمقطم " في نفس الأسلوب، حيث اتخذ شوقي النملة رمزا للجسم الصغير الذي يدخل في مناظرة ومناقشة مريرة مع الجبل العظيم وهو المقطم – اسم جبل يقع في مصر –.

2- دور الوالدين والمجتمع في تربية الأولاد:

فشوقي في حكايته بعنوان " البلابل التي رباها البوم " يؤكد على أن الوالدين والمجتمع والبيئة تلعب دورا رئيسيا في التنشئة السليمة للأطفال، فإذا كانت البيئة غير مواتيّة، أو كان المربي غير صالح للتربية المطلوبة فلا يمكن للطفل أن يتعلم المثل الأعلى والقيم العالية، لأن كل ما يرى الطفل في بيئته أو يسمع منها يدخل في قلبه وذهنه ثم يظهر في أقواله وأفعاله، حيث يقول:

أُنبِئت أن سليمانَ الزمانِ ومَن أصبى الطيورَ، فناجَتْه، وناجَاها
أعطى بَلابِله يوما – يؤدِّبها لحُرمةٍ عنده – لِلبومِ يَرعاها
واشتاقَ يومًا من الأيام رؤيَتَها فأَقبَلتْ وهي أَعصى الطَيرِ أَفواها
أصابها العِيُّ، حتى لا اقتدار لها بأن تَبُثَّ نبيَّ الله شَكواها
فَنَال سيّدها من دائها غضبٌ ووَدَّ لو أنه بالذَّبحِ داواها
فجاءه الهُدهُد المعهودُ معتذرًا عنها، يقول لِمولاهُ ومولاها
بَلَابِلُ اللهِ لَمْ تَخْرَسْ، وَلَا وُلِدَتْ خُرْسًا، وَلَكِنَّ بُوْمَ الشُّؤْمِ رَبَّاهَا ([33])

أما إقبال ففي منظومته بعنوان " نصيحة صقر لفرخه "([34]) يؤكد أيضا على تأثير دور المربي في تربية الصغار، ويوضح أن الطفل يتعود على ما يعلمه ويربيه أبواه أو البيئة التي تحيط به، فالمنظومة مشتملة على مجموعة من النصائح الثمينة التي يلقي الصقر على فرخه، حيث يقول:

تعلَّم بنيَّ بأن الصُّقور لها قلبُ ليثٍ وجسمٌ صغير
فكنْ مُحْكَم الرأي شهمًا جسورا عليَّ السجايا أبيًا غيورا
بُغاث الطيورِ اهجرنها بعيدا ودعها إذا لم تُردْ أن تصيدا
فتلكَ الرعاديدُ نسلُ اللئام تدسُّ مناقيرها في الرَّغام
متاع الحياة، تعلَّم، جهادُ وصبرٌ على محنةٍ واجتهادُ
نقول لفرخِ عقابٍ عتيق: " بريق الدِّماء يفوق العقيق "
ولا تبغِ سِرْبًا كَسِرْب الغنم توحَّد كقومك منذ القدم
سمعتُ وُصاةَ الصقور العتاق بألا نقيم بظلِّ وساق
فليس لنا في رياضٍ مجال فسيحُ الفيافي لنا والجبال

ولقطك حبّا بأرض خطاء حبانا الإله عنانَ السماء
فَطِرْ في السماوات لا تخشَ خطبا وكُلْ ما أصبتَ رطبا ويبسًا
ولا تقبلنَّ طُعمةً من أحد وكن راشدًا واستمع للرَّشْد ([35])

3- الرضاء بقدر الله:

يشير أحمد شوقي في منظومته بعنوان " الضبي والعقد والخنزير " إلى القناعة والرضاء على قدر الله تعالى لأنه عادل وحكيم لا يظلم على عباده مثقال ذرة، وجميع أوامره وأحكامه مبنية على الحكمة، ويعلم الأطفال أنه يجب علينا أن نقتنع بما أعطى الله لنا أو حرمنا، وأن نرضى بما قسم الله لنا من سعادات وأحزان، ويجب ألا نقارن أنفسنا بالآخرين، لأن سنة الله تعالى قد جرت في تفاوت عقول الناس ومواهبهم، وكل واحد يفتقر إلى الآخر، فالمريض يحتاج إلى الطبيب، والطبيب يحتاج إلى المهندس، والمهندس يحتاج إلى العامل، فبقاء المجتمع البشري تعتمد على الحب والتعاون المتبادل في الناس، فالشكوى من الله تعالى والاعتراض عليه ليس أمر محمودا وعاقبته سيئة، يقول شوقي في مطلع هذه الحكاية:

ظبْيٌ رأَى صورتَهُ في الماء فرفع الرأسَ إلى السماءِ
وقال يا خالِقَ هذا الجيد زِنْه بعِقدِ اللؤلؤ النَّضيد ([36])

وهكذا أورد العلامة محمد إقبال هذا الفكر والمضمون في منظومته بعنوان " البقرة والعنزة "([37])، حيث يمنع الأطفال من النكران للجميل والكفر بنعمة الله تعالى. وخلاصة الحكاية أن البقرة تشكو إلى العنزة من الإنسان أنه لا يعاملها برفق، يستخدم حليبها، ويتبرم عندما يحلب قليلا، ويبيعها عندم تكون هزيلا، ويقابل الحسنة بالسيئة، لكن العنزة ترى جانبا آخر، فهي يجعل البقرة تدرك أن الإنسان قد صنع لنا مرعى جميلا، حيث لا نخاف فيها من الحيوانات المفترسة، وهو يعطينا العلف والحشائش الخضراء وأعد لنا الظل البارد، وكل هذه المتع من صنع الإنسان، وكل هذه المسرات بسببه، وكيف تكون هذه النعم واللذات من نصيبنا؟! وكيف يعيش الحيوان الأخرس المسكين؟، يقول إقبال ساردا الحكاية:

كان مَرْعَى إنه مرعى خَصيبْ في الرَّبيع أشبهَ الثوبَ القَشِيبْ
يُعجِز الوصفَ بمرآة الطَّرير كلّ رُكنٍ فيه مَجْرى للغَديرْ
فيه رُمّانٌ تجلَّى من غُصون فيه ظِلٌّ كان في مَرْمى العيونْ
الحريرُ كان فيه نَسَمات للطيور فيه كانت نَغَماتْ
إن شاةً عند نَهرٍ تَرتَع كيف شاءت ما لها مَنْ يمنع؟
ثم ألقتْ نظرةً مِن حولها بَقَرا ما شاهَدَتْه عينُها

وعليها ألقَتِ الشاةُ السلام ثم قالت كلّ مَعْسولِ الكلام
وعليها تَطرَحُ الشاةُ السؤال فتقول: إنّني في خير حال
وتُضيف لستُ في عيشٍ رغيد فدَواليْكَ شَقِيٌّ وسعيد
إنّ لي عيشا، وهذا العيشُ مرّ وعلى بالٍ شقائي ما خَطَر
وقضاءُ الله إن أنْتَظِر وعلى نفسي وغيري أنفَطَر
ليت شعري أي شيء أستطيع ذاك أمرٌ للبصير والسميع
أيّ خيرٍ كان فيًّا للأنام قطعُ أسبابٍ بهم هذا مرام
إنْ رأَى دَرّى قليلا يغضَب إنْ نَحُلتُ فلِسوقٍ يَذهَب
إنّ لقيدي لقيد مِن حديد إنَّ ذُلّي عنده ذلّ العبيد
إن أطفالا لهم رَبَّيْتُهم شربوا دَرّى بِذا أحْيَيْتُهم
أنا أحسنتُ ولكن قد أساء أرفَع الكفَّ لربّي بالدعاء
قالتِ الشاةُ أسأتِ بالشَّكاة فبهذا لا صلاحَ للحياة
قلتِ حقًّا إنما الحقُّ مَرير وعليه مِقْولي دَوْمًا يَدور
ولَنَا المرْعى وهذاك النَّسِيم ولَنَا الظِلُّ وذَيَّاك الجْمِيم
نحن مِن هذا جميعا في نِعَم إن هذا كان خيرا ثم عمْ
إنّه جُهدٌ لإنسانٍ بَذَل وبها الإنسان في النُّعْمى رَفَل
إن للإنسان كان عيشَنا؟ قيدُنا نبغِيه نحن كلّنا
نحن في الغابات لسنا في أمان وبهذا إنّ أمرَ الله كان
إنما الإنسان ذو فضل علينا إنْ شَكَوْنا رَدّ شِكوانا إلينا
إنّ معنى راحةٍ لو تُدرِكين فمِنَ الأنسان لستِ تشتكين
رَنّ هذا القول في سمع البقر فاعتراها ما اعتراها مِن خَفَر
أدركتْ ما الخيرُ والشرُّ لها عجَّلتْ مِن بعد هذا قولها
إنما الشاةُ صغيرٌ حجمُها راسخٌ في القلب حتمًا حُكمُها ([38])

4- الحذر من خداع العدو:

يسعى شوقي في منظومته بعنوان " الثعلب والديك " إلى توظيف قيمة لدى الأطفال وهي عدم الائتمان للأعداء، ووجوب الحذر من مكرهم وخداعهم، ويوضح الأطفال أن لا يتعجلوا في تصديق كلام العدو والوثوق به، لأن العدو يمكن أن يظهر بأشكال مختلفة، كما في هذه الحكاية يظهر الثعلب الماكر الخادع

في هيئة الناصح الزاهد، ويطلب من الديك أن يؤذن لصلاة الصبح، وليس له غرض فيها إلا أن ينزل من فوق الشجرة ويهجم عليه، يقول شوقي في مطلعها:

برز الثعلب يوما في شعار الواعظينا

فمشى في الأرض يهذي ويسب الماكرينا ([39])

وقد أدى إقبال هذا المضمون في منظومته بعنوان " العنكبوت والذبابة "([40])، حيث يخبرنا بفكرته المحورية التي يريد أن يوصلها للأطفال في هذه القصة الشعرية، وهي أن التملق والنفاق والمداهنة تجعل الإنسان ييأس من الحياة ويستعد للموت، ويعلم الأطفال أننا لا ينبغي أن نصدق على أحد دون تفكير وتحقيق، ويجب علينا أن نتجنب عن خداع الأعداء والمتملقين باستخدام عقولنا وذكائنا، ولا ينبغي أن ننسى أن العدو يبقى عدو مهما كانت الظروف، ومهما أبدى من صداقة لأن صداقة العدو تكون مزيفة في الأغلب، كما في هذه المنظومة يحاول أن يقنع الأطفال على عدم الثقة والاتكال على مقال العدو الكاذب، ويحذرهم عن التعامل معه، فيروي لنا في هذه الحكاية أن العنكبوت كيف خدع الذبابة بكلماته المزخرفة، وكيف اعتمدت الذبابة على كذبه ووصلت إلى شفا الموت، يقول إقبال:

لِذُبابٍ قال يوما عَنكَب في عبور كلّ يوم يرغب
وتمرّين بداري في دوام ودخول الدار ما كان المرام
لا تزوري قطّ مَن لا تعرَفين بذوي القربى دواما تَهْنِين
أنتِ إنْ زُرتِ فلي هذا الشرف سُلَّمي هذا وكلّ قد عرف
ثم قالت: أنت من لا يصدق لست حمقاء وأنت الأحمق
أنا لست من تردى في الحباله هالك ضيفك هذا لا محاله
لست خداعا، فهذا تحسبين زدت حمقا أنت لست تعقلين
زورة منك إلى رغبتي بعد هذا إنني في خيبتي!!
في الأحايين إلى تقدمين لو دخلت الدار ماذا تحذرين؟!
سترين أنت في الدار عجيبه لا تلوح الدار لي دارا رغيبه
كل باب فوقه ستر يزين وجدار بمراياه الجدير
ببساط أرضها إني فرشت ما بدار غيرها هذا رأيت!!
ثم قالت: إنه شيء جميل وقدومي إنه للمستحيل
غير أني أسأل الله البِعاد لحياتي إنه حقا نَقَّاد
حارَ في الأمر فقال العنكب ليت شعري أي شيء أطلب!!

كل شيء قد يتمّ بالدَّهان فخُدِعْنا هكذا الإنسان كان!!
وبفضل الله قال قد نجوتِ وإلى العلياء ها أنت سَمَوْتِ
أنت بالحسن البديع تعجبين أنتِ تيَّمتِ قلوبَ العاشقين
إن في عينيك مثل الماس يلمَع مثل عُرف الديك شَعر بل وأبدَع
أنت كل الحسن يا ذاتَ البهاء وإذا طرت صَدَحتِ بالغِناء
عند هذا رقَّ منها قلبُها واطمأنَّت وتجلَّى حبها
إنني ما كنت يوما أنكر لا ولا قلبا أنا من يكسر
بعد هذا القول قامت ثم طارت قبضة العنكب فيها ثم كانت
منذ أيام له الجوع احتمل كان في جوع شديد فأكل ([41])

5- حب الآخرين ومساعدتهم:

لقد لفت أمير الشعراء انتباه الأطفال في قصائده إلى جانب اجتماعي مهم وهو مساعدة الضعفاء والحب لهم، منها حكايته الشعرية بعنوان " الكلب والحمامة "، حيث يوضح ويعلم الأطفال أن قوام المجتمع البشري وازدهاره يعتمد على الحب المتبادل في أفراد المجتمع والمؤاساة فيما بينهم، فمن حسن المجتمع أن الناس يتشاركون في آلامهم وأحزانهم، ولا يمكن لأحد أن يعيش وحيدا، ولا يمكنه أن يدعي أنه لن يحتاج في حياته إلى المساعدة، ويؤكد الشاعر أنه من فعل المعروف وأحسن الناس فكأنما أحسن وفعل الخير لنفسه، وستعود عليه أجره في هذه الحياة، كما قال الله تعالى في محكم تنزيله: " إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ "([42]).

وتدور أحداث هذه المنظومة بين الحمامة والكلب، فالحمامة ترى ثعبانا كبيرا قادما للدغ الكلب الذي ينام في الحديقة، فالحمامة توقظه بالانقضاض عليه بمنقارها، فيسلم الكلب من هذا الشر، وحفظ هذا المعروف للحمامة، وبعد فترة من زمان يرد الكلب مكافأة هذا الإحسان عندما يأتي مالك الحديقة لصيد الحمامة، فينبح الكلب بصوت عال محذرا إياها، فتتنبه الحمامة وتطير بعيدا وتنقذ حياتها، يقول شوقي في مطلع هذه الحكاية:

حِكايةُ الكلبِ معَ الحمامَه تشهدُ للجِنسَين بالكرامَه ([43])

وقد أدى العلامة إقبال نفس المضمون والمحتوى في قصيدته الشهيرة لدى الأطفال بعنوان " المؤاساة "([44])، حيث يؤكد على قيمة بذل المعروف والإحسان بين الناس ومساعدة الأخرين وفي أوقات الشدة والضيق، ويدعو الأطفال إلى التعاون على البر فيما بينهم، ويقنعهم أن خير الناس في الدنيا هم الذين

يساعدون الآخرين، وكما أن في هذه القصيدة رسالة لتعبئة الطاقات والقدرات التي أعطانا الله لخير البشرية.

وأحداث القصيدة تدور بين البلبل واليراعة في الحديقة، حيث يقضي البلبل طوال اليوم مشغولا بالطيران والتقاط الحبوب، في هذا الأثناء يحل عليه المساء، ويفتقد طريق العودة إلى عشه بسبب الليل المظلمة والظلام الدامسة، فيقف في هذا التفكير وحيدا حزينا على غصن الشجرة، عندما تسمع اليراعة بكائه وعويله، وتعرف سبب حزنه، ويقدم له خدماته، حيث يضيء له الطريق ويوصله إلى عشه، يقول إقبال:

بلبلٌ حطّ على طرف الفَنَنْ قلبُه فيه شديدٌ من حزن
قال: ليلي وعليَّ قد دخل ونهاري طِرْتُ فيه لم أزل
فإلى عُشّي أنا كيف الوصول والظلام كان مَرْخيّ السدول
من قريب سمعتْ فيه اليراعة فشجاها منه ضعف الاستطاعة
ثم قالت أنا بالروح أُعِيْن ليس مثلي كان في الدنيا مَهِين
من ظلام الليل ماذا أَحْزَنك؟ الطريق سَأَنِيْر أنا لك
خصَّني الله أنا منه بنور فأنا في الليل مصباح مُنير
إن خير الناس من كان المعين آخذٌ دَوْمًا بأيدي الآخَرين ([45])

خاتمة البحث:

بعد بحث شعر الأطفال عند أحمد شوقي ومحمد إقبال من محور اجتماعي استطعنا إثبات هذه النتائج:

1- كان شوقي وإقبال أول من أبدع شعرا للأطفال في الأدبين: العربي والأردي بعيدا عن كتب الدراسة والمناهج، واتخذ كلاهما من شعرهما وسيلة لعرض القيم الاجتماعية لأطفال مصر والهند، وكلاهما وصلا في إبداعاتهما في شعر الأطفال العربي والأردي لدرجة روائع المنظومات التربوية والإصلاحية، وتعد لا مثيل لها في الأدبين: العربي والأردي من حيث المضمون واللغة والأسلوب.

2- شعر الأطفال عند شوقي وإقبال يحمل اتجاهات إيجابية في تكوين أفكار الأطفال وبناء شخصياتهم ليكونوا رواد الحياة وتتعدد اتجاهات شعر الأطفال عندهما من حيث أصولها وأهدافها الاجتماعية والتربوية، وضمنت منظوماتهما وقصصهما الشعرية القيم الاجتماعية والموعظة الأخلاقية.

3- استحدث شوقي وإقبال في الأدبين: العربي والأردي نوعين من فنون شعر الأطفال هما: المنظومات والقصص الشعرية، وأغلب نماذجه على لسان الحيوانات والطيور، وذلك أن الأطفال يرغبون في استماع هذا النوع من القصص ويحبونها كثيرا بالنسبة إلى غيرها.

4- من خلال موضوعات شعر الأطفال، حافظ الشاعران على التراث الديني والمجتمع الإسلامي فكانا فخوران بهما، وحاولا دائما تعليمهما للأطفال وتعميق إحساسهم بالانتماء إلى دينهم وثقافتهم، حيث نجد الفكر الإسلامي عندهما الموضوع الرئيسي الذي تدور حوله العديد من قصائدهما وأناشيدهما.

الهوامش

[1] – أحمد شوقي، الشوقيات، ج1، ص77.

[2] – نفس المصدر، ص60.

[3] – نفس المصدر، ج3، ص77.

[4] – نفس المصدر، ج1، ص90.

[5] – نفس المصدر، ص111.

[6] – نفس المصدر، ص153.

[7] – نفس المصدر، ص42.

[8] – نفس المصدر، 35.

[9] – نفس المصدر، ص292.

[10] – نفس المصدر، ص179.

[11] – نفس المصدر، ج2، ص53.

[12] – الحر، د. عبد المجيد، أحمد شوقي أمير الشعراء ونغم اللحن والغناء، دار الكتب العلمية: بيروت، ط1، 1992م، ص145.

[13] – إقبال، محمد، اسرار ورموز، كتب خانه نذيريه: دهلى، ط1، 1962م، ص110.

[14] – الغوري، سيد عبد الماجد، ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة، دار ابن كثير، بيروت، ط3، 2007م، ص215-216.

[15] – إقبال، محمد، بانگ درا، ايجوكيشنل بک هاؤس: دهلى، ط1، 1975م، ص202.

[16] – حازم محفوظ، حسين المصري، بدائع العلامة إقبال في الشعر الأردي، المجلس الأعلى للثقافة: القاهرة، ط1، 2005م، ص168.

[17] – إقبال، محمد، ضرب كليم، مطبع غلام على پبلشرز: لاهور، ط18، 1976م،ص69.

[18] – حازم محفوظ، حسين المصري، بدائع العلامة إقبال في شعره الأردي، ص358.

[19] – محمد إقبال، ضرب كليم، ص69.

[20] – نفس المصدر، ص90.

[21] – حازم محفوظ، حسين المصري، بدائع العلامة إقبال في شعره الأردي، ص358.

[22] – محمد إقبال، ضرب كليم، ص120.

[23] – حازم محفوظ، حسين المصري، بدائع العلامة إقبال في شعره الأردي، ص381–382.

[24] – محمد إقبال، بانگ درا، ص259.

[25] – حازم محفوظ، حسين المصري، بدائع العلامة إقبال في شعره الأردي، ص203.

[26] – محمد إقبال، ضرب كليم، ص162.

[27] – الغوري، ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة، ج2، ص120.

[28] – محمد إقبال، ضرب كليم، ص86.

[29] – الغوري، ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة، ج2، ص73.

[30] – أحمد شوقي، الشوقيات، ج4، ص176–177.

[31] – محمد إقبال، بانگ درا، ص31.

[32] – حازم محفوظ، حسين المصري، بدائع العلامة محمد إقبال في الشعر الأردي، ص53–54.

[33] – أحمد شوقي، الشوقيات، ج4، ص127.

[34] – إقبال، محمد، پيام مشرق، مكتبه شيخ غلام على اينڈ سنز: لاهور، ط10، 1963م، ص117.

[35] – الغوري، ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة، ج1، ص285–286.

[36] – أحمد شوقي، الشوقيات، ج4، ص136.

[37] – محمد إقبال، بانگ درا، ص32.

[38] – حازم محفوظ، حسين المصري، بدائع العلامة محمد إقبال في الشعر الأردي، ص54–56.

[39] – الشوقيات، ج4، ص150.

[40] – محمد إقبال، بانگ درا، ص29.

[41] – حازم محفوظ، حسين المصري، بدائع العلامة محمد إقبال في الشعر الأردي، ص52–53.

[42] – سورة الإسراء، الآية 07.

[43] – أحمد شوقي، الشوقيات، ج4، ص173.

[44] – محمد إقبال، بانگ درا، ص35.

[45] – بدائع العلامة محمد إقبال في الشعر الأردي، ص56-57.

المصادر المراجع:

- القرآن الكريم

1- الحر، د. عبد المجيد، أحمد شوقي أمير الشعراء ونغم اللحن والغناء، دار الكتب العلمية: بيروت، ط1، 1992م. إقبال، محمد، بانگ درا، ايجوكيشنل بک هاؤس: دهلى، ط1، 1975م.

2- إقبال، محمد، اسرار ورموز، كتب خانه نذيريه: دهلى، ط1، 1962م.

3- إقبال، محمد، بانگ درا، ايجوكيشنل بک هاؤس: دهلى، ط1، 1975م.

4- إقبال، محمد، ضرب كليم، مطبع غلام على پبلشرز: لاهور، ط18، 1976م.

5- إقبال، محمد، پيام مشرق، مكتبه شيخ غلام على اينڈ سنز: لاهور، ط10، 1963م.

6- الحر، د. عبد المجيد، أحمد شوقي أمير الشعراء ونغم اللحن والغناء، دار الكتب العلمية: بيروت، ط1، 1992م.

7- الغوري، سيد عبد الماجد، ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة، دار ابن كثير، بيروت، ط3، 2007م.

8- حازم محفوظ، حسين المصري، بدائع العلامة إقبال في الشعر الأردي، المجلس الأعلى للثقافة: القاهرة، ط1، 2005م.

9- شوقي، أحمد، ديوان الشوقيات، دار العودة: بيروت، د.ط، 1978م.